

الهجرة القبائلية نحو فرنسا : أسطورة على أرض الواقع
(على ضوء مقال "عبد المالك صياد" حول أصول الهجرة القبائلية الجبلية)

أ: فلة بن جيلالي

المركز الجامعي خميس مليانة

(الجزائر)

Résumé

« L'émigration kabyle vers la France : un mythe réalisé », tel est l'intitulé de cet article unique dans son genre du fait qu'il contient aussi la première traduction vers l'arabe d'un article d'Abdelmalek Sayad sur l'émigration kabyle très rarement cité et très peu connu dans le champ scientifique algérien. Le but du papier que je présente est de mettre entre les mains des lecteurs arabophones un texte détaillé sur la nature, les conditions et les spécificités sociales, géographiques, historiques et politiques de l'émigration algérienne, montagnarde (kabyle) et d'éclaircir la relation de cause à effet qui la rattache en permanence et jusqu'à nos jours avec « le mythe kabyle ».

تقديم : الهجرة و أسطورة القبائل

يتعلق الأمر في هذا المقال بعرض ترجمتي إلى اللغة العربية لنص "عبد المالك صياد" حول الهجرة القبائلية و التي قمت بها على الرغم من أنني لم أكن أفكر يوما في الترجمة قط. إن وضعيتي الخاصة هي التي استقطبتني لخوض هذه التجربة الأولية ، فهجرتي الذاتية الجامعية كطالبة تبحث في ميدان يتقاطع و موضوع الهجرة القبائلية هي التي ساعدتني على التفكير في ترجمة نص الهجرة " لعبد المالك صياد " ، بل و أرغمتني- نوعا ما- عليها لأن دراسة الهجرة تقتضي معرفة ميدانية و مباشرة لها، أي أنها تستلزم خوض تجربتها في الواقع، و ذلك بهدف إعادة تركيب الجزأين المكونين لنفس الظاهرة ، ألا و هما الهجرة من الوطن الأصلي و الهجرة في الوطن المستقبل (1) .

لقد شدني في موضوع الهجرة عند عبد المالك صياد ، الشكل المتميز الذي يتناولها من خلاله ، و هو يبرز ببراعة أهمية البعد الاجتماعي الاقتصادي و السياسي الاستعماري لها مبينا الخصائص المشتركة بينها و بين الهجرات المحلية الأخرى في الشرق و الغرب ، مما يجعل من إشكالية الهجرة القبائلية في نظره تختلف طرحا عنها لدى غيره ممن تناولها (2) .

إن اهتمامي بموضوع الهجرة القبائلية يصب مباشرة في البحث الذي أخوضه حاليا في ميدان العلوم السياسية، و الذي يدور موضوعه حول السياسة الجهوية و الهوية الأمازيغية (*) في الجزائر، فقد كان هذا المقال الوارد باللغة الفرنسية في مجلة " Hommes et migrations " (3) المدخل الذي اكتشفت من خلاله "عبد المالك صياد" الذي كانت مشاركته في ملف هذا العدد من المجلة أمرا غير منتظر لأنه عادة ما يقوم بنشر مقالاته عبر قنوات علمية متخصصة في موضوع الهجرة و علم الاجتماع ، فالمقالات التي وردت إلى جانب مقاله في هذه المجلة المتجهة نحو جمهور واسع نسبيا ، و التي ساهم من خلالها بعض الجامعيين و الأساتذة الباحثون ذوو الأصل القبائلي (4) أمثال "سالم شاكر " و " تاسعديت ياسين " ، كانت على غرار مقاله ، جلها مقالات قصيرة بالرغم من أهدافها العميقة ، إلا أن خصوصيته مقارنة بمقاله تتمثل في أصحابها الذين، على العكس منه ، يبدون اهتماما مباشرا بالدراسات البربرية ، و لعل هذا الأمر هو الذي يجعل من مقاله يكتسب صبغة فريدة من نوعها : إنه مقال المؤلف القبائلي الذي يتناول دراسة القبائل متجردا من قبائليته ، إلا أن أصله قد يكون في نفس الوقت عاملا رئيسيا يدفعه نحو الانشغال بمواضيع الهويات و الأقليات (5) . بالموازاة مع ذلك ، لا بد من الإشارة إلى أن من أهم ميزات هذا العدد من المجلة هو تخصيصه بأكمله للشخصيات العلمية من الأصل القبائلي المتواجدة بفرنسا ، في نفس الوقت الذي صادفت فيه عملية طبعه و نشره سنة 1994 سنة كثر فيها الحديث عن القبائل إثر اقترانها بأحداث مشهورة في الجزائر، كإضراب المحفظة مثلا أو كاختطاف الفنان القبائلي "معطوب الوناس" من طرف الجماعات الإرهابية المسلحة ، هذا إضافة على كونها أيضا إحدى سنوات العشرية السوداء في الجزائر .

إذن و على الرغم من مجهودات المجلة في توسيع مجال نشر هذه المقالات، إلا أن نص " عبد المالك صياد" لم يذع صيته بعيدا و لم يكتسب الشهرة اللازمة، و هو يظل لحد الساعة واحدا من ضمن نصوصه التي قليلا ما تستعمل أو تذكر في الأبحاث العلمية، فهو النص الذي لم يرد مثلا في كتاب " الغياب المزدوج" الذي شمل أغلب المقالات التي ألفها حول الهجرة، فالقارئ المتعود لـ"عبد المالك صياد" سيلاحظ- دون شك- أن هذا المقال يعتبر توضيحا حاول من خلاله المؤلف إلقاء الضوء على أصول الهجرة القبائلية أكثر مما يعتبر عرضا طويلا للموضوع ، إلا أن هذا الأمر لا يقلل من أهميته في ربط الظاهرة بالظروف التاريخية للجزائر من زواياها المختلفة مبرزا من خلال ذلك أنها بالفعل نتيجة للأسطورة القبائلية ⁽⁶⁾ في الوقت نفسه الذي تظل فيه المنتج المستمر لها عبر الزمن ، فقد كانت الهجرة القبائلية و لازالت لحد الساعة، حلقة الوصل في سلسلة التاريخ بين الجذور الاستعمارية لنشأة الأسطورة و فجور إعادة بعثها المتجدد في الجزائر المستقلة من حين لآخر و الذي لم يتردد- كلما صادف مواعيد المألوقة- في ترك بصمات ذات آثار اجتماعية، اقتصادية و سياسية.

إن الاهتمام بالبحث في ظاهرة الهجرة عند القبائل من طرف الأكاديميين لم يكن بالاختيار العشوائي، بل لأنها شكلت النواة الأولى للهجرة في منطقة الشمال الإفريقي كله ، فقد كانت هي السبابة لكل باقي الهجرات الأخرى، و قد مثلت أقواها و أكثرها كثافة ليس من حيث عدد القبائل الذين هاجروا فحسب بل هي كذلك أيضا اجتماعيا، فالجزائر " الفرنسية " أنداك، كانت منبعا لليد العاملة التي أبدت فرنسا حاجة ماسة لجلبها نحو " المتروبول"، و لعل المعارضة التي تلقتها من طرف المعمرين المتواجدين بالأراضي الجزائرية هي التي أرغمتها على تركيز جهودها في منطقة القبائل، بصفتها منطقة جبلية، فقيرة، و غير مستقطبة، لذا كان نجم شمال إفريقيا، بصفته أول تنظيم سياسي في تاريخ الحركة الوطنية و الذي تأسس بالمهجر، ذو تشكيلة غلبت عليها عناصر من منطقة القبائل، متشعبة بالأفكار السياسية التي اكتسبتها جراء احتكاكها بالحزب الشيوعي الفرنسي من جهة و انخراطها بالمنظمات النقابية العمالية من جهة أخرى، بصفتها هجرة عمالية اقتصر على جلب فرنسا لليد العاملة الرخيصة من أرض مستعمرتها. هذا باختصار ما أكسب الهجرة الجزائرية السمة الاستعمارية ، القبائلية ، الجبلية ، العمالية ، الفصلية، الفردية والذكورية .

من الهجرة القبائلية إلى الهجرة المغاربية .

غير الاستقلال الكثير من المعطيات في بداية الستينات، و قد سمح بذلك لبعض المصطلحات الجديدة بالبروز على الساحة العلمية، و عليه تحولت على إثر ذلك تسمية هجرة شمال إفريقيا إلى تسمية جديدة : الهجرة المغاربية نسبة لدول المغرب العربي، إلا أن هذا التحول لم يقتصر على التسمية فقط بل على مدلولها أيضا، إذ بدلا من هجرة عمال مستعمرات شمال إفريقيا و التي كان يغلب عليها هجرة أهل القبائل أصبحت تشمل كل جهات الوطن الجزائري، هجرة شاملة - هجرة عائلية، هجرة تشمل أيضا و بكثافة الناطقين بالعربية، مما جعل من المهاجرين الناطقين بالقبائلية يتحوّلون شيئا فشيئا من أغلبية إلى

أقلية، أي أنهم باتوا يمثلون هجرة تكاد تكون خفية و ذلك بالنظر لدرجة اندماجهم في بيئة المهجر (المجتمع الفرنسي) ، الأمر الذي يجعلها تقترب من هجرات جنوب أوروبا خاصة الإيطالية، البرتغالية و الإسبانية، أكثر من اقترابها من الهجرات المغاربية الحديثة نسبيا، بل و تختلف أيضا عن الهجرة البربرية المغربية كهجرة بربر الشلوح في الجنوب و الريف في الشمال، كلا بل و حتى على الهجرة البربرية لأهل الأوراس الشاوية في شرق الجزائر نفسها.

إن الخصوصيات الاجتماعية التي تنفرد بها الهجرة عند القبائل لم تغير فيهم أي شيء من حيث تمسكهم بلغتهم بدينهم و بتقاليدهم و طقوسهم التي لا زالت تطبع سلوكهم في المهجر كما يبينه الواقع، و التي تجعل من هجرتهم أيضا، جزء لا يتجزأ من التجربة المغاربية التي تغلب عليها حاليا هجرة الناطقين بالعربية .

إن الجالية القبائلية في المهجر مثلها مثل باقي الجاليات الجزائرية و المغاربية الأخرى ، فهي ليست أقل أو أكثر جزائرية من الآخرين و لا أكثر أو أقل إسلامية من البقية الباقية ⁽⁷⁾ ، فأمازيغيتها لا تفرد لها بشيء عن بقية الجاليات المهاجرة على الرغم من أن خصوصيتها اللغوية، الجغرافية و " الدينية " - العوامل نفسها التي تم الاستناد إليها لبثورة ما يعرف بالأسطورة القبائلية - هي التي لعبت دورا في جعلها السباقة على باقي الهجرات الأخرى، تماما كما جعلتها تكسب الصورة الاندماجية المثلى خاصة لدى الرأي العام الفرنسي، على الرغم من أن عراقلة الهجرة و قدمها لا يعني أبدا نجاحها في كل الأحوال ، و لعل تألق البعض من الشخصيات ذات الأصل البربري لمناصب وزارية في حكومتها "فرنسا فيون" ^(**) " أمثال "فضيلة عمارة" و " عزوز بقاق"، لا يجعل منها شخصيات أكثر كفاءة أو نجاحا من غيرها من الشخصيات الوزارية ذات الأصول المغاربية المهاجرة الأخرى، أمثال "رشيدة داتي"، فالأمر هنا يتعلق بالسياسة الفرنسية التي تحرص على تجسيد التنوع أكثر مما يتعلق بنجاح أو كفاءة الشخصيات المختارة في حد ذاتها ، إنه تلاعب إيديولوجي أكثر من كونه تقدير للنجاح لكن هل هذا يعني أيضا أن أصولهم القبائلية ليست بشيء في هذا الاختيار ، بل التساؤل الآخر الذي قد يطرح نفسه في هذا المقام ، يدور حول مدى دراية "فرانسوا فيون" كوزير أول أو "نيكولا ساركوزي" كرئيس جمهورية لقبائلية البعض و عدم قبائلية البعض الآخر من هذه الشخصيات قبل تعيينها في تلك المناصب الهامة ، التي سمحت لها - في كل الأحوال - باكتساب طابع الرمزية ، و هو ما يبين واقعا إحدى الصور الواضحة التي تنعش الهجرة من خلالها اليوم ، الأسطورة القبائلية التي لا زالت بدورها تدعم بالهجرة.

ألقى عبد المالك صياد، من خلال هذا النص، الضوء على هذا الموضوع بتفصيل ملم ، و بحياد تام ، فالقارئ لمقاله يلتبس أن المؤلف يتناول في موضوعه فاعلين أساسيين في علاقتهما بالأرض وهما : المهاجرين ، و المغاربة ، و هو لا يخص بالحديث "القبائليين" على الرغم من كونه قبائلي الأصل، منحدر من أسرة متوسطة ولد بـ"أغبالة" ببلاد القبائل (منطقة بجاية) سنة 1933 ، شغل ، قبل أن يلتحق بالجامعة المركزية بالجزائر العاصمة سنة 1956 ليزاول دراسته في الفلسفة و علم النفس ،

منصب معلم بمدرسة تكوين المعلمين ببوزريعة سنة 1954، و قد مثلت الهجرة بالنسبة له وسيلة اختارها لتعميق البحث في موضوعها مما جعله يعيش وضعية المغترب المختلف عن باقي الأكاديميين الذين بحثوا في نفس الموضوع سواء في الجزائر أو في فرنسا، الفرنسيين منهم و الجزائريين و لعل من أهم ما شده للبحث و الكتابة في هذا الموضوع هو انتمائه لنفس الجيل الذي شكل الدفعة الأولى من العمال المهاجرين و الأجراء الفلاحين بفرنسا ، فقد عاش أحداث جيله في ظل الجزائريتين : المستعمرة و من بعدها المستقلة ، بالجزائر بداية و بين الجزائر و المهجر حتى وافته المنية عام 1998 بفرنسا، مخلفا من ورائه إرثا علميا أكسبه بكل جدارة لقب الباحث الاجتماعي المتخصص في الهجرة الجزائرية نحو فرنسا (8)، بحكم معرفته الميدانية لكلا المجتمعين الجزائري و الفرنسي ، ناهيك عن التكوين الذي تلقاه على يد أستاذه " بيار بورديوه " و الذي جمعته به علاقات ذات طابع تعاوني ، متعددة بذلك تلك العلاقات البسيطة التي عادة ما تربط الأستاذ بطالبيه (9) ، خاصة و قد كان بالنسبة له بمثابة المفتاح الذي فتح له بوابة المجتمع القبائلي الذي اعتمد عليه "بيار بوديو" كأرضية لأغلب الدراسات الاجتماعية التي قدمها و اشتهر بها، كذلك التي تمحورت حول " البيت القبائلي " و " معنى الشرف " مثلا . (10)

اشتهر بصفة عامة " عبد المالك صياد" أنه الباحث الاجتماعي الذي ركز أعماله حول الهجرة إذ تناول مواضيع مختلفة تعلقت مثلا بالوضعية الصحية للمهاجرين ، العمل ، الاتصال، و الدولة و الوطن، حيث جعل منها، سيما في المنطقة المغاربية ، ظاهرة اجتماعية حديثة ذات أصول تاريخية استعمارية و أبعاد سياسية و اقتصادية مترابطة .

الترجمة و علم اجتماع الهجرة :

يعد هذا العمل بالنسبة لي أول تجربة علمية و عملية في الترجمة ، فهي ليست بالأمر البسيط الذي تبدو عليه لأول وهلة ، إذ أنها تطرح بعض الصعوبات تتعلق بالمعنى الدقيق للفكرة الأصلية للمؤلف و التي على المترجم أن يحرص كل الحرص على احترامها و نقل المدلول الذي قصده المؤلف من ورائها و الذي يجب أن يكون هو نفسه المدلول الذي استوعبه المترجم فالترجمة على هذا الأساس، تستلزم تمعنا مطولا في قراءة النص الأصلي ، أو بالأحرى قراءا متعددة تجعل منك في كل مرة قارئ جديد لنفس الموضوع.

إن مثل هذه الأعمال الأكاديمية المبعثرة عبر المجالات المختلفة ، ستختفي من الحقل الأكاديمي الجزائري حتما إذا لم تترجم إلى اللغة العربية (11) ، لذا فإن الترجمة من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، و بالرغم من الصعوبات التقنية التي تطرحها الترجمة من جهة و اللغتين الفرنسية و العربية من جهة موازية ، إلا أنها ضرورة علمية لا مفر منها، بل و تحد تقتضيه تنمية الالتحاق بركب الحقل العلمي بصفة عامة ، لضمان المشاركة المستمرة - و ليست العرضية - في المنافسة التي تخضع بدورها لشروط تكاد تكون حkra على الجامعات الأجنبية التي تزداد تحكما في قواعدها عبر الزمن ، و ذلك بحكم شغور منصب المنافس لها .

أخيرا ، بحكم أول تجربة ، و بحكم تجارب من سبقني في الميدان ⁽¹²⁾، ستظل الترجمة في نظري ، بكل صعوباتها ، متعة علمية متميزة ، ناهيك إذا كان المؤلف الأصلي يطرح إلى جانب موضوع نص الترجمة خصوصية إضافية : فترجمة عبد المالك صياد (كجزائري) في موضوع الهجرة القبائلية (أي الجزائرية)، تفترض الابتعاد عن القاعدة العامة للترجمة التي تستدعي الاستناد إلى لغتين بالتالي بلدين أو بالأحرى مجتمعين مختلفين، لأنها في الحقيقة ترجمة تستدعي تغيير البلد دون تغيير الأشخاص، زيادة على أن اللغة الفرنسية في الجزائر تتمتع في الواقع بطابع مزدوج ، فهي أجنبية و وطنية - غير رسمية - في آن واحد، و لعل ذلك الأمر قد شكل عاملا تقنيا مساعدا على خوض هذه التجربة العلمية و عرض الترجمة في نصها الآتي :

أصول الهجرة القبائلية (بقلم عبد المالك صياد)

ساد الاعتقاد منذ زمن طويل أن أصل الهجرة الجزائرية في فرنسا أمر يكاد يكون مقصورا على القبائل بصفة خاصة، و يعرف عن الأحكام المسبقة أنها أفكار تتميز بقدرة عالية على الصمود في وجه مختلف التحديات و هو ما يفسر استمراريتها و دوام التمسك بها في المجتمع .فبالرغم من كون الهجرة الجزائرية، ريفية كانت أو حضرية - منذ قرابة القرن - هجرة شملت كل مناطق الجزائر و مست كل الشرائح الاجتماعية و الطبقات الشعبية بصفة فردية أو عائلية (في البداية في شكل عمال معزولين ثم في شكل هجرة عائلية)، إلا أن الهجرة القبائلية ظلت تمثل دوما (و بالخصوص من وجهة نظر الرأي العام الفرنسي) الصورة النموذجية للهجرة الجزائرية في فرنسا في مجملها ، مما جعل باقي الجاليات المهاجرة من المناطق الأخرى للجزائر تختفي وراء هذا الحكم المسبق.

الجنور التاريخية للاعتقاد السائد :

إن هذه الصورة (أي هذا الحكم المسبق) ، ليس بالإمكان الحكم عليها لا بالصواب و لا بالخطأ، إنها صورة أو أسطورة سابقة للهجرة في حد ذاتها ، بل و قد ساهمت هذه الأخيرة في تأسيس و تدعيم هذه الأسطورة القبائلية، التي ساهمت و لازلت بدورها تساهم بنفس القدر في تكوين الهجرة نحو فرنسا. بصفة مختصرة، يمكننا وصف العلاقة التي تربط بين الهجرة الجزائرية و الأسطورة القبائلية بالعلاقة الدورانية بما أن كل واحدة منها تتدعم من الأخرى .

إن الأسطورة القبائلية ⁽¹³⁾ ما هي إلا الصيغة الجزائرية للأسطورة البربرية التي ذاع صيتها في المغرب الأقصى أين نشأت و ارتقت إلى أسلوب سياسي رسمي ، عرف بما يطلق عليه غالبا اسم " سياسة فرق تسد " .

القبائل و ظاهرة التجارة المتنقلة :

إن اللجوء إلى "التجارة المتنقلة" كعادة معروفة منذ القدم عند أكثرية القبائل و كوسيلة لكسب العيش، أصبح يمثل في الوقت الحالي حجة علمية لتدعيم الفكرة المتمثلة في أن ظاهرة الهجرة الحديثة هي امتداد خطي لها و كأن التجارة المتنقلة التي كانوا يمارسونها في إطار الاقتصاد التقليدي يمكن أن

تكون لها علاقة بالاقتصاد الرأسمالي الحديث من جهة ، و الهجرة الحديثة التي تبحث عن العمل المأجور .

من جهة أخرى ، علما أن هذه الأخيرة قد ظهرت و تطورت في إطار الاقتصاد الرأسمالي الصناعي الاستعماري الحديث . و هكذا يظل الهدف الأساسي لهذا الخطاب الشبيه بالعلمي ، يستجيب لأغراض سياسية أكثر منها علمية .
القبائلي " أكثر استعدادا للعمل " :

تسبب سوء تسويق الخمور الجزائرية (سيما مع تحسين الكرم الفرنسي الذي تم تطهيره من " الفيلوكسيرا ") و أزمة زراعة العنب في بداية هذا القرن ، في دفع المستعمرين المضطرين إلى تحقيق ادخار ، إلى التقليل في اليد العاملة الأوروبية التي يبدو أنها كانت ذات تكلفة باهظة الثمن نسبيا ، كما دفعتهم أيضا إلى اكتشاف اليد العاملة الجزائرية و امتيازاتها الاقتصادية من حيث كونها سهلة الاقتناء و منخفضة الثمن .

في هذا المقام لا بد من التذكير أنه و في الحقبة الأولى من الاستعمار ، ساد الاعتقاد أن الأهالي ينتمون إلى سلالة منحلة متخلفة ستؤول تلقائيا و حتما نحو الزوال دون الحاجة إلى أي تدخل خارجي أو سياسي ، خاصة و قد عم الاعتقاد بأنه كلما احتك شعب متقدم بشعب متخلف (العرق الأعلى بالعرق الأدنى) ، كان مصير هذا الأخير الاضمحلال و الزوال، هذا و قد تزامن ظهور هذه النظرية العرقية و العنصرية مع بروز الهجرات الأولى لأهالي المجتمعات الجزائرية و الإفريقية المستعمرة بصفة عامة نحو أوروبا و فرنسا بصفة خاصة .

القبائلي " أكثر قابلية للإدماج " :

من ضمن باقي الاعتقادات السائدة في شأن الرجل القبائلي، أنه مقتصد، مقاول، جريء، ماهر، براغماتي واقعي، أكثر تحررا اتجاه الدين وقيوده، أكثر تحررا اتجاه التقاليد و الضغط الاجتماعي الذي تمارسه المجموعة إيمانه سطحي، و ممارسته للمعتقدات الدينية معتدلة وأقل تعصبا، و هو ما يجعل القبائلي أكثر قابلية للإدماج و أكثر ليونة للتكيف مع العادات الاجتماعية و الثقافية الغربية على مجتمعه الأصلي، سيما تلك الخاصة بالمجتمع الاستعماري " المتطور " الذي يتكفل بمهمة " تحضيره " ثقافيا و اجتماعيا .

إن هذه الصورة بالخصائص التي أسندت للفرد القبائلي في إطار بناء الأسطورة القبائلية لا تعبر في الحقيقة عن مميزات الفرد القبائلي بقدر ما تعبر عن إرادة المستعمر في رسم معالم الوجه المناقض و المعاكس للفرد العربي، لذا استطاعت هذه الأسطورة على غرار باقي الاعتقادات الخرافية و الذهنية أن تجسد وجودها في الواقع بمجرد اكتسائها الحلة العلمية التي يوفرها لها الخطاب " شبه العلمي " والإيديولوجي، الشيء الذي حدث بالفعل مع الأسطورة القبائلية التي تكاد تتحول باستمرار إلى حقائق

واقعية، فالخطاب المشكل بهذه الطريقة من شأنه أن يخلد الأسطورة ليضيف لها و بأثر رجعي مزيدا من المصادقية.

الهجرة و الريف:

تتشرك الهجرات القديمة منها و الحديثة في أصلها الريفي الذي كان منذ الأزل يزود المدن و العالم الحضري بصفة عامة بمنتجاته الفلاحية و كفاءاته البشرية التي كان يوفرها بانتظام للمناجم و المصانع و غيرها من الورشات، فالهجرات الدولية الخارجية الحديثة ما هي إلا امتداد جغرافي للهجرات الوطنية الداخلية التقليدية (النزوح الريفي) . فيا ترى ما هي الأسباب التي تدفع بالمجتمعات الريفية و القروية إلى اتخاذ قرار مغادرة الأهل و العائلة و القرية نحو المدن ؟

يعتبر تاريخ هذه الحركات البشرية من البداوة نحو الحضارة ، من القرى نحو المدن ، خاصية اجتماعية و جغرافية لكل مجتمعات العالم الثالث ، إذ أن أغلبية المهاجرين ينتمون دوما إلى الأصل الريفي و المجتمعات المتخلفة ، مما يجعل كل أنواع الهجرات تتخذ نفس الاتجاه، غالبا من الجنوب نحو الشمال.

تعتبر الهجرة الجزائرية نموذجا مثاليا لكل هجرات العالم الثالث من حيث أسبقيتها الزمنية و كثافتها البشرية⁽¹⁴⁾، فتاريخ الهجرة الجزائرية هو جزء لا يتجزأ أو مرآة عاكسة لتاريخ المجتمع الريفي الجزائري و تاريخ استئصاله الذي استهل مع بداية الاستعمار الفرنسي، و لعل قبل الشروع في تطوير هذه الفكرة يستحب التعريف بالاستعمار الذي يرد من وجهة نظر مزدوجة :

أولاً: الاستعمار كسيطرة و احتلال عسكري يميزه العنف مع استلاب الأراضي عن طريق القوة
ثانياً: الاستعمار من وجهة نظر البعد التاريخي، المتمثل في فرض نظام اقتصادي و اجتماعي جديدين، و غريبين عن عادات و تقاليد المجتمع الجزائري، فالطبيعة المختلفة لهاذين النظامين الدخيلين تستوجب حتما اللجوء إلى العنف من أجل فرضهما حتى و لو لم يقتض ذلك التواجد الفعلي للمستعمر بالأراضي المحتلة.

إن مجرد اقتحام هاذين النظامين الجديدين المجتمع الجزائري يعتبر في حد ذاته عنفا رمزيا و ماديا، وعليه فإن عملية تعميمه ستكون دون شك أكثر درجة في العنف.

إشكالية الشرق و الغرب :

إن هذه العملية المزدوجة التي تعتبر خاصية لكل أنواع الاستعمار الحديث ، المباشر أو غير المباشر (والمقصود بغير المباشر هو المفهوم الثاني أي الاستعمار الذي لا يحتاج إلى مستعمرين) ، قد اكتست في الجزائر حلا مختلفا باختلاف المناطق أو الجهات، و ذلك تجاوبا مع الخصوصيات المحلية (التضاريس، أسلوب التقييم الفلاحي، التعمير، السكن، الهياكل الاجتماعية، التقاليد الثقافية، الخ ..)، و بالأخص وفقا لطرق اتصالها بالاستعمار و بما أدخله عليها من تجديدات.

لم تكتف السياسة الاستعمارية بفرض نفسها على المجتمع الجزائري و تقاليده بل تعدته إلى استثمار الجهود العسكرية و السياسية من أجل تعميق الاختلافات الموجودة من قبل و تحويلها قدر الإمكان إلى معارضات بين المجموعات المحلية الجهوية ، كذلك التي مست الشرق و الغرب مثلا.

أولا معارضة جغرافية: كان الاستعمار يولي اهتماما كبيرا بالأراضي الجديدة أي الأراضي السهلية الخصبة و التي كانت سهلة للاستيلاء و الاحتلال (بحكم شغورها في غالب الأحيان من المساكن و خلوها من الكثافة السكانية ، و منه انعدام التضامن الاجتماعي) . لقد شكلت هذه المساحات أولى الأراضي التي استولى عليها الاستعمار في بداية هيمنته العسكرية (1840-1844) كما مثلت ميدانا لتطبيق أولى الإجراءات الإدارية القانونية الخاصة بسياسة نزع الأراضي و إبعاد ملاكها الأصليين عنها مع تشديد الرقابة على المستوطنين لأجل استغلالها⁽¹⁵⁾ ، و التي وردت في سلسلة من القوانين و مراسيم الملكية العقارية بدءا من سنة 1844 إلى غاية 1930⁽¹⁶⁾ ، منها مثلا الأوامر الصادرة في 1844 و 1846 ، قانون الملكية العقارية لسنة 1851 ، قانون السيناتوس كونسيلت ل 1863 ، قانون فارنييه في 1873 و القانون التكميلي لسنة 1887 و 1897 ، هذا إلى جانب الإصلاحات العقارية الأخرى الممتدة من 1901 إلى غاية 1919.

إن كل هذه السياسات ذات الطابع العقاري و أفلاحي كانت سببا في بروز أولى حركات النزوح الريفي التي سمحت بظهور موجات متدفقة من الأيدي العاملة من فئة الفلاحين الذين انتزعت منهم أراضيهم لتصبح في متناول المعمرين.

أما في الشرق الجزائري الذي تغلب عليه التضاريس الجبلية، فقد تميز الاستعمار فيه بطبيعة مختلفة لأسباب تتعلق أولا بالطابع الجغرافي للمنطقة، التي كان تدخله فيها متأخرا نسبيا، تدريجيا عبر فترات متباعدة، أقل شدة و أقل تركيزا ، الأمر الذي ساعد الأهالي على "الاستعداد" لمواجهة مستجدات الوضع الذي أحدثها الاستعمار.

استنادا إلى هذه الاختلافات الجغرافية بين الشرق و الغرب و التي عمقها الوجود الاستعماري ، ظهرت سلسلة من الخصوصيات الاجتماعية و الإقليمية المتباينة و التي تمثلت في اختلافات شاملة.

• الاختلافات الديمغرافية (البشرية) : يتسم الشرق بكثرة عمرانية و كثافته السكانية العالية، فالسكن كما هو الحال في المناطق الجبلية يتميز بالطابع القبلي القائم على التضامن و العصبية إذ أنه يتكون في غالبيته من بنية قروية و تجمعات سكنية تزيد من درجة الالتحام الاجتماعي.

إن هذا النمط من الحياة الاجتماعية يتطلب إقامة علاقات مدنية جوارية منسجمة و متعاطفة بين الأفراد مما يفترض نوع مبسط من الحياة السياسية لتنظيم الحياة الاجتماعية، كنظام " تاجماعت" عند القبائل مثلا، كما أن هذا الأسلوب المعيشي يختلف عن ذلك المتواجد في الغرب أين يتسم السكن بقلة كثافته و كثرة توزيعه عبر المساحات الواسعة مما يقلل من درجة التضامن الاجتماعي نظرا لقلة السكان، وهو الأمر الذي ينتج عنه في غالب الأحيان الإحساس بالعزلة و الخوف

- الاختلافات في البنية العقارية و في نوع الملكية و أسلوب المعيشة : المقصود بالبنية العقارية هي الأراضي الواسعة في الغرب ذات الملكية المشتركة من جهة ، و الأراضي المتقلصة ذات الملكية الخاصة في الشرق من جهة أخرى ، حيث كان طابع الغرس يغلب فيها على طابع الزرع.
- اختلافات ذات طابع ثقافي : يتميز الغرب بكثرة عمرانها و تمدنها فهو بلد الشيوخ (جمع شيخ ، بلد رجال الدين و المعلمين) مما يجعله مؤهلا للحضارة ، عكس الشرق موطن الجواد، بلد المقاتلين حسب عبارة " أوجستين بيرك " (أو كما يقال بلد " المقاجي " ، أي المجندين المتطوعين و هو ما يوافق نوعا ما المغامرين و "المخاطر ين") ، فهو يتميز بحياة ثقافية هزيلة و شفوية .

الهجرتين:

إن الاختلاف الإقليمي بين الشرق و الغرب بما يحتويه من انعكاسات اجتماعية اقتصادية و ذهنية، قد يشبه إلى حد ما نظرية المناخات لـ "مونتسكيو" التي خص بها الشمال و الجنوب الفرنسي، حيث أنه من الممكن جدا أن نطابق نموذج هذه النظرية على الجزائر في شأن شرقها و غربها ، أي بين الجبال و السهول ، بين النمط السكاني الجماعي القروي و النمط السكاني المبعثر (القليل الكثافة)، بين الغراسة و الفلاحة المتنوعة ذات الطابع الجبلي و الاستهلاك المحلي، والزراعة الأحادية الواسعة النطاق ذات الطابع السهلي و التجاري.

الغرب الجزائري و الهجرة المحدودة :

كانت الهجرة في الغرب منذ زمن تتم في اتجاه الأملاك العامة للاستعمار، و في اتجاه العمل الفلاحي المأجور بأراضي كان المهاجرون أنفسهم ملاكها القدماء أو من أبناء ملاكها الأصليين، انتزعت منهم بفعل الاحتلال الاستعماري .إنها هجرة داخلية ، هجرة ضعيفة السعة ، من الجبال نحو السهول وهي في نفس الوقت هجرة محلية اختص بها هؤلاء الفلاحون " المستأصلون" في عقر ديارهم، كما تتسم هذه الهجرة بنوع من الاستمرارية بما أنها تظل تتعلق دوماً بالفلاحة و الفلاحين ، فهي تمس نفس الميدان و نفس النشاط بنفس العتاد و نفس التقنيات و نفس تقاليد العمل، و هي تأخذ شكل الهجرة الفصلية التي يستكمل بها الفلاحون نشاطاتهم الفلاحية العادية (القليلة المردود)، كما يمكنها أيضا أن تأخذ شكل الهجرة المستمرة و الدائمة، و ذلك كلما تحتم عليهم الأمر الاستقرار بضواحي أراضي المعمرين المنتزعة منهم، في مساكن قصديرية أو أكواخ من الطوب (ما يعرف قي وهران بالقرى السوداء) .

الشرق الجزائري و الهجرة الحديثة :

إضافة إلى الهجرة الداخلية و المحلية، ظهرت في الشرق و بصفة مبكرة هجرة جديدة، هجرة طويلة المدى، تعبر عن اغتراب حقيقي بما أنها تفرض و تقتض خبرة مهنية و مؤهلات نفسية، عائلية و اجتماعية جديدة.

إن هذه الهجرة تستلزم إحداث قطيعة جذرية مع النمط المعيشي السابق لتتأقلم في مجتمع مختلف ألا وهو المجتمع الفرنسي الاستعماري، و هو ما يجعلها هجرة ذات طابع صناعي تختلف عن الهجرة الداخلية للغرب و في الغرب الجزائري التي تتسم بالطابع الفلاحي. البحث .

ساهمت هجرة الشرق في النشأة الأولى للطبقة العمالية الكادحة الجزائرية في فرنسا⁽¹⁷⁾ ، كما تعتبر أيضا أولى وأكبر التجارب السياسية الجزائرية من خلال تأسيسها في المهجر لأولى تشكيلة سياسية جزائرية تطالب بالاستقلال حملت اسم " نجم شمال إفريقيا" سنة 1926.

بصفة عامة ، و مهما كانت أهمية هذه المميزات و المعطيات الإقليمية الاجتماعية و الاقتصادية للشرق والغرب،للجبال و السهول فإنها تبقى دائما غير كافية و غير قادرة على الإلمام بتفسير كل الفوارق و الأسباب التي أدت إلى حركة الهجرة .

الهجرة و الحرب العالمية الأولى :

إن سياسة التجنيد و التسخير التي انتهجتها فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى اتجاه الرجال الفرنسيين، ولد الحاجة إلى اليد العاملة بشكل عاجل و بالغ الأهمية ، إذ أن توجيه أغلبية الرجال نحو الحرب كان سببا في تعويض مناصبهم بالمصانع و المهن المختلفة من طرف النساء ، الشيء الذي جعل من فرنسا في ذلك الوقت أول بلد أوروبي يشغل النساء ، مما انعكس من بعد على معدل المواليد الذي انخفض بشكل زاد من حدة و خطورة المستقبل الديمغرافي للمجتمع الفرنسي.

تصديا لهذه الوضعية، طلبت فرنسا من مستعمراتها المشاركة في الحرب، و على إثر ذلك تم تجنيد الأهالي الجزائريين إما للتدعيم العسكري لصفوف الجيش الفرنسي ضد الألمان أو لتعويض الفراغ الذي تعاني منه المصانع الفرنسية ليحملوا في هذه الحال اسم " العمال المستعمرين". إلا أن السلطة السياسية الفرنسية بالجزائر ظلت تعارض هذا الطلب محاولة قدر الإمكان منع التطوع للتجنيد أو هجرة الأهالي للعمل المأجور (تماما كما عارضت من قبل سياسة التعليم) تخوفا من إمكانية حدوث أزمة في سوق العمل بالجزائر و التي قد تسبب ارتفاعا في قيمة و ثمن اليد العاملة الجزائرية.

بالموازاة مع ذلك ، ظلت هذه السياسة تمثل في نظر الرأي العام للمعمرين المحليين (و خاصة كبار الملاك و كبار المزارعين) نوع من المنافسة الداخلية غير العادلة (بالنظر إلى الامتيازات المادية التي تعرضها فرنسا في باريس على الأهالي) ، كما كان الرأي العام يتنبأ بآثار احتكاك الأهالي المجندين بالنقابات و الثقافة العمالية الفرنسية البروليتارية ، التي قد تنمي فيهم ذهنية المعارضة النقابية والسياسية مما قد يعطي من شأنهم نتيجة لكل ذلك، و بينما كانت فرنسا تنتظر من مستعمرتها أن تزودها بما يقارب

40.000 عامل جزائري سنة 1915⁽¹⁸⁾ ، لم تمدّها الإدارة الاستعمارية في الجزائر و إلى غاية 15

جوان 1916 إلا بـ 15.000 عامل، الشيء الذي أجبر السلطات الفرنسية المركزية على اللجوء إلى فرض التسخير، ليس من أجل إلزام الجزائريين على التجنيد بل من أجل معالجة المعارضة الإدارية للحكم الاستعماري المحلي الذي كان تحت هيمنة كبار ملاك المعمرين .

الهجرة الحرة :

إن الهجرة الحرة ، و التي لم تكن في حسابان الرأي العام الفرنسي لا المركزي و لا المحلي، و التي كانت نتيجة للسياسة الاستعمارية منذ بدايتها و في مختلف أشكالها ، حققت نتائج أكبر من تلك التي حققتها سياسة التجنيد و التسخير : ففي السداسي الأول لسنة 1917 سجل 21.680 متطوع من أصل 26310 ذهاب ، و قد تحصلت الجزائر على سبيل المثال على تخفيض في العلاوة المقترحة من طرف وزارة الحرب من 5 إلى 2 فرنك في اليوم. و عليه فقد بلغ عدد المهاجرين الجزائريين ما بين 1914-1918 ، 116.000 عامل ، منهم 70.000 عامل سجل عن طريق التسخيرة (بلغ عدد التسخيرات في المغرب و تونس 54.000 تسخيرة) .

في المجموع ، تم تجنيد 240.000 جزائري - أكثر من 3/1 العمال ذكور يتراوح عمرهم من 20 إلى 40 سنة.

يبقى أن الأمر الملفت للانتباه هو أن أغلبية العمال المهاجرين و المجندين انحدروا بصفة عامة من الأصل الريفي القروي و القبائلي بصفة خاصة ، إذ أن كلتا السلطتين الفرنسييتين (قي باريس و الجزائر العاصمة) لجأتا بصفة عاجلة و فورية إلى حل آخر، ألا و هو الاتجاه نحو المناطق الجبلية القبائلية أين كانت مصالح و قوة المستعمر ضعيفة، وذلك بالنظر إلى ندرة الأراضي السهلية و منه قلة تواجد المعمرين بها.

إن طبيعة هذا الاختيار تنطبق أيضا على الغرب لا سيما في بعض مناطقه التضاريسية العالية

مثل

مرتفعات الورسنيس (دوار بومعد ، الذي زود الهجرة المحلية بدوره بعمال فلاحين دائمين ، مثلما زود الهجرة نحو فرنسا على فاصل بعض الأجيال) و قمم لالا مغنية (سيما دوار سواحلية و مسيردة).

الهجرة و التعليم :

انتهجت السياسة التعليمية الاستعمارية بالجزائر نفس الأسلوب و عرفت نفس مصير الهجرة، فقد واجهت هي أيضا نفس الصعوبات و نفس الكوارث من أجل نفس الأسباب و استنادا لنفس المنطق، كما تلقت أيضا نفس المقاومة - إن لم تكن أشد- من طرف المعمرين لنفس الحجج و بنفس سوء النية. نظرا لكل ذلك ، اضطرت السياسة التعليمية الاستعمارية للجوء إلى نفس الحل بما أنها وقعت في نفس الإشكال، أي أنها اتجهت نحو جبال القبائل لفتح أولى مدارسها بالقرى الداخلية للقبائل العليا (الأربعاء نايت إيراثن، بني يني، آيت أوغليس).

إن شأن التعليم كان نفسه شأن التجنيد العسكري ، إذ يعتبر كلاهما النواة الأولى للهجرة العمالية الخارجية الطويلة المدى، وأولى قطيعة اجتماعية و ذهنية مع المجتمع القروي الجزائري في نمط معيشته (اللباس، أسلوب التخاطب و المعاملات) ، كنتيجة لولوج النقود كمعيار اقتصادي اجتماعي حديث في حياة الفرد الجزائري القروي .

فيا ترى لماذا حضى موطن القبائل بهذه الخصوصية التاريخية و الاجتماعية حتى يصبح منبع سخي للهجرة نحو فرنسا من جهة ، و محطة مشهورة للمدارس الاستعمارية (رغم محدودية التعليم في الواقع) من جهة أخرى ؟

يرتبط تاريخ الهجرة بتاريخ التعليم من حيث أن كلاهما قد ساهم بنفس القدر في تغذية الإيديولوجية الاستعمارية المتناقضة من وجهتي النظر الاقتصادية و السياسية ، حيث أنها لم تحقق الهدف التي كانت تصبو إليه (الاندماج و تحديث المجتمع) بل حققت نقيضه ألا و هو الاستئصال العام ، ففي القبائل مثلا تصادفت مواعيد الموجات الأولى للهجرة مع الموجات الأولى للمدارس الاستعمارية ، فقد شيدت أول مدرسة فرنسية بقرية " تمازيرت" مباشرة بعد المدارس التبشيرية الأولى للآباء البيض بـ "واغن" ، " واطية" و " جمعة صهريج" ، وقد تم من بعد إعلان قرار التعليم الإجباري في القبائل عام 1885. مرة أخرى لماذا هذا التركيز و الإلحاح على بلاد القبائل؟

الهجرة القبائلية و السياسة الاستعمارية :

في هذا المقام لا بد من إعادة عرض دور الأسطورة القبائلية التي تعتبر تشويه حقيقي للوقائع السوسيولوجية ، و ذلك تلبية لحاجات تقتضيها سياسة إدماج قائمة على التفرقة . لقد كانت الهجرة القبائلية مطلوبة و مشجعة (إلى حد ما طبعا) أكثر من غيرها ، أكثر حتى من تلك الخاصة بالمناطق الجبلية الأخرى (كالأوراس مثلا)، لدرجة أنها أصبحت عاملا رئيسيا في السياسة البربرية (القبائلية) للإدارة الاستعمارية .

تقلص تعاطف و تضامن بعض الأكاديميين و الجامعيين الفرنسيين مع الأهالي (الأندجينيوفيليا) إلى درجة التمرکز حول القبائل (القبائلوفيليا) ، و قد تم هذا التحول بصورة مستترة ، لا شعورية ، سريعة، آلية و تلقائية ، كوسيلة لدعم أهداف عنصرية ، إذ عرض و لا زال يعرض القبائل كمثال ناجح للسياسة الاندماجية الفرنسية ، في نفس الوقت الذي كرس فيه هذا الخطاب (القبائلوفيلي) الفكرة الأسطورية الإيجابية للميزة القبائلية و لعب دورا هاما في ملاطفة الخصوصية القبائلية التي تسببت في زرع الفتنة بينهم و بين غيرهم من الجزائريين.

إن الهجرة التي استقلت اليوم - إلى حد ما - عن القيود التقليدية السابقة التي كانت تحكمها (الهيمنة و المراقبة العائلية ، الجماعية و القروية) ، لا زالت - و ربما أكثر من ذي قبل - تدعم الفكرة التمييزية للأسطورة القبائلية ، فالיום، و حتى إن لم يظهر ذلك جليا ، تجدر الإشارة إلى أن الاعتقاد الذي لا زال سائدا لدى العامة في الجزائر و في فرنسا، هو أن القبائل يمثلون النموذج الناجح للاندماجية أكثر من غيرهم من بقية المهاجرين الجزائريين، بل و حتى من كل المغاربة بصفة عامة (19).

التهميش:

1- « Entretien avec Abdelmalek Sayad » par Hassan Arfaoui, in : Le monde Arabe dans la recherche scientifique, (M.A.R.S). n°6 (Printemps/été) 1996, p4.

2- أمثال محند خليل الذي تناول نفس الموضوع بطرح مختلف جذريا عن ذلك الذي تبناه عبد المالك صياد. انظر:

-Khellil Mohand, L'exil kabyle. L'harmattan : Paris, 1980.

*- في كثير من الأحيان يتم استعمال مصطلح المسألة البربرية أو الأمازيغية ، إلا أن القصد الحقيقي من خلالها يكون المسألة القبائلية ، فالمسألة البربرية تنحصر في الجزائر كلها ببلاد القبائل دون غيرها من المناطق البربرية الأخرى ، لذا فالأحسن هو تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية.

3- Abdelmalek Sayad, « *Aux origines de l'émigration kabyle ou montagnarde* ».in : Hommes et migrations , (septembre), N°1179, 1994, Adri :Paris, pp 6-11.

4- انظر الملحق الوارد في نهاية المقال.

5-A. Sayad, « Minorités et rapport à l'Etat dans le monde méditerranéen : Etat et minorités en Algérie, le mythe kabyle », in : Connaissance de l'islam, Paris, Syros, 1992, pp135-181.

6-Charles Robert Ageron, « la France a-t-elle eu une politique kabyle ? » In, « revue historique », 84é année, tome CCXXIII, N°II, Presses universitaires de France : Paris, 1960, pp311-352.

7- لمزيد من المعلومات، أنظر:

Chachoua Kamel, L'islam kabyle : religion, Etat et société en Algérie. Suivi de l'Epître (rissala) d'Ibnou Zakri(Alger 1903) Mufti de la grande mosquée d'Alger. Paris, Maisonneuve et larose , 2001.

**- المقصود هنا هي حكومته الأولى ثم الثانية التي شغلت فيها "فضيلة عمارة" منصب كاتبة الدولة المكلفة بشؤون المدينة حتى 13 نوفمبر 2010 تاريخ التعديل الحكومي الأخير ، أما "عزوز بقاق" فقد شغل منصب وزير مفوض لتطویر تكافؤ الفرص في ظل حكومة "دومينيك دو فيلبان" في الفترة ما بين من 02 جوان 2005 إلى 07 أفريل 2007 ، بينما "رشيدة داتي" فقد شغلت بدورها منصب المتحدث باسم "تيكولا ساركوزي" أثناء حملته الانتخابية الرئاسية سنة 2007، و من بعد منصب حافظة أختام الجمهورية و وزيرة العدل في ظل كل من الحكومة الأولى و الثانية لـ"فرانسوا فيون" ، و ذلك حتى 23 تاريخ جوان 2009.

8-اطلع على قائمة المراجع ، سيما مؤلفات "عبد المالك صياد".

9-Anthropologie de l'émigration (société de l'émigration et science de l'immigration) : Pour Abdelmalek Sayad 1933-1998. , sous la direction de Chachoua Kamel, Alger, CNRPAH, 2011, sous presse.

10- Pierre Bourdieu, Esquisse d'une théorie de la pratique précédé de trois études d'ethnologie kabyle. Genève, DROZ, 1972. Notamment les chapitres sur « la maison kabyle ou le monde renversé » et « le sens de l'honneur ».

11- لتجمع في كتاب واحد على الشكل الذي جمعت به مقالات "عبد المالك صياد" الخاصة بالهجرة في كتاب:

Abdelmalek Sayad, La double absence : Des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré. Paris, Le seuil, 1999.

12- Kamel Chachoua, «Traduire l'immigration vers l'arabe : le cas des travaux du sociologue algérien Abdelmalek Sayad ». In : la traduction des sciences humaines et sociales dans le monde arabe contemporain. Sous la direction de Richard Jacquemond, Collection dialogue des deux rives, Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud : Casablanca, 2008, pp 73-86.

13-في مرجع ألف في القرن 15 و صدر في 1826 (بعد وفاة المؤلف) ، كان الأب "قيوم رينال " قد رسم لوحة للقبائل و صورة للقبائلي ، الذين تضمننا الخصائص التي أعيد طرحها تدعيما للخصوصية القبائلية التي أعجب بتأسيسها. أنظر

Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des européens dans :

l'Afrique . Paris , imprimerie Costes , 1826,2 vol.

حول نشأة و وظيفة الأسطورة القبائلية سنطلع على أعمال مؤرخو الجزائر المعاصرة و خاصة

CH.R. Ageron, les Algériens musulmans et la France, Paris, PUF, 1968,2 tomes 1298p, « la France a-t-elle eu une politique kabyle ? » In : revue historique t 223 (2) avril –juin, 1960, R.Mabrouki, « la construction du mythe kabyle », D.E.S de sciences politiques, Alger, 1975, A.Sayad , « Emigration et nationalisme , le cas algérien » in : Genèse de l'Etat moderne en Méditerranée, école française de Rome ,N°168, 1993, pp 407-436.

14- اعتبرت فرنسا أول دولة من العالم المتطور، بواسطة توسعها الاستعماري (إنشاء المقاطعات الجزائرية)، لجأت إلى جلب اليد العاملة من دولة تعتبر اليوم من دول العالم الثالث (اختراع الهجرة الحالية). كما اعتبرت أيضا الجزائر المستعمرة، أول بلد من دول العالم الثالث اليوم الذي اتجه نحو العمل المأجور (أي للهجرة الحديثة). في كل هذه المسائل حول النشأة الاجتماعية للهجرة و طابعها النموذجي ، في جانبه الاقتصادي ، السياسي ، الثقافي إلخ...، اطلع على |:

-A. Sayad, (en collaboration avec P. Bourdieu), « le déracinement, la crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie », Paris , édition de minuit,1964 et

- "L'immigration algérienne en France »(avec A. Gillette) Paris, entente ,1976 pp15-85 et

-« L'immigration algérienne une immigration exemplaire » in : Les algériens en France (sous la direction de J. Costa-Lascoux et E. Termime), Paris, édition publisud, 1985.

15- إن بداوة الغرب و بصفة عامة تلك الخاصة بكل السهول العليا للبلاد ، على عكس بداوة أراضي الجبال و بصورة أوسع الأراضي الفقيرة ، التي احتقرت و أهينت من طرف الاستعمار ، لا يبدو أنها قد استعادت قوتها من الضربات التي كانت قد تلقتها مبكرا، قبل حتى أن يكون لها الوقت لرد الفعل و التهيو لاستقبال الصدمة. كدليل على هذا الاختلاف في الوضعية الاجتماعية و الذهنية بين أهل الريف، نذكر مثلا سلوكاتهم المتباينة خلال الثورة التحريرية ، حقيقة أنه من الصعب فتح مجابهاة مكشوفة في مناطق غير محمية ، إلا أن هذا المعطي الجغرافي لا يمكنه أن يفسر بأن كل رؤساء الولاية السادسة (منطقة وهران) ينحدرون من الشرق . تمديدا لهذه العلاقة، فإن التقسيم الحالي (في الجزائر المستقلة) لقطاعات السلطة ، يوضح انتماء الجيش في أغلبيته إلى الشرق الجزائري ، في حين يستحوذ الغرب على الوظائف الأنينة ذات الهبة التي تستدعي رؤوس أموال رمزية كبيرة (نسبيا) ، رأسمال من الثقافة ، من التمييز ، من العمران ، و كل الصفات التي الإيجابية التي ترتبط بالمدينة و بشروط الحضارة ، فجزائر الغرب هي جزائر حضرية نسبيا.

16- و حتى بعد فترة الاحتلال ، أي في الجزائر المستقلة ، بداية مع تأسيس نظام التسيير الذاتي الفلاحي ، الذي ارتبط و استمر مع إجراءات " الثورة الزراعية" ، و من بعد ذلك و حديثا مع الانفتاح المحتشم لهذا القطاع العام ، لكنه انفتاح اتفاقي ، انحرف عن أهدافه المنتظمة ليحقق أهداف مراوغة.

17-cf. A. Gillette et A. Sayad , l'immigration algérienne en France, Paris, édition entente, 1976, et plus particulièrement le chapitre « l'émigration comme fin en soi »,pp75-85et aussi

- A. Sayad . « Emigration et nationalisme...» art.cit.

18- مثلا، قامت وزارة الفلاحة – لقد اعتبرت الفلاحة الفرنسية دوما من أكبر مستعملي اليد العاملة المهاجرة، و ذلك حتى في زمن السلم – بتشغيل مليون عامل فلاحي لصالح البوص.

19- من أجل عرض سريع للآثار السياسية للهجرة على المدى الطويل، أنظر :

-A.Sayad, « Minorités et rapport à l'Etat en Algérie, le mythe kabyle ». In : Connaissance de l'islam, Paris, Syros, 1992, pp153-181.

قائمة المراجع :

1- Ageron (Charles robert), les Algériens musulmans et la France. Paris, PUF, 1968.

- 2-Ageron (Charles robert), « la France a-t-elle eu une politique kabyle ? »_in, « revue historique », 84^e année, tome CCXXIII, N°II (avril/juin), Paris, Presses universitaires de France, 1960.
- 3-Arfaoui (hassan), « Entretien avec Abdelmalek Sayad_» in : Le monde Arabe dans la recherche scientifique, (mars), n°6 Printemps/été 1996
- 4-Bourdieu (pierre), Esquisse d'une théorie de la pratique précédé de trois études d'ethnologie kabyle. Genève, DROZ, 1972.
- 5-Bourdieu (pierre), Le sens pratique. Paris, minuit, 1980.
- 6-Chachoua (kamel), L'islam kabyle : religion, Etat et société en Algérie. Suivi de l'Epitre (rissala) d'Ibnou Zakri(Alger 1903) Mufti de la grande mosquée d'Alger. Paris, Maisonneuve et larose , 2001.
- 7- Chachoua (kamel), « Traduire l'immigration vers l'arabe : le cas des travaux du sociologue algérien Abdelmalek Sayad », in : la traduction des sciences humaines et sociales dans le monde arabe contemporain. Sous la direction de Richard Jacquemond, Collection dialogue des deux rives, Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud : Casablanca, 2008.
- 8-Mohand (khellil), L'exil kabyle. Paris, l'harmattan, 1980.
- 9-Mabrouki (r), « la construction du mythe kabyle », D.E.S de sciences politiques, Alger, 1975.
- 10-Raynal (l'abbé guillaume), Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des européens dans l'Afrique. Paris, imprimerie Costes, 2^eme vol, 1826.
- 11- Sayad (abdelmalek), « Aux origines de l'émigration kabyle ou montagnarde ».in : Hommes et migrations, (septembre), N°117, Paris, Adri, 1994.
- 12- Sayad (abdelmalek), « Minorités et rapport à l'Etat dans le monde méditerranéen : Etat et minorités en Algérie, le mythe kabyle ». In : Connaissance de l'islam, Paris, Syros, 1992.
- 13- Sayad (abdelmalek), La double absence : Des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré. Paris, Le seuil, 1999.
- 14-Sayad (abdelmalek), « Les trois âges de l'émigration algérienne en France », in : Actes de la recherche en sciences sociales, vol 15 (juin), paris, le seuil, 1977.
- 15-Sayad (abdelmalek), « Les enfants illégitimes », in : Actes de la recherche en sciences sociales, vol 25(janvier) ,1^{ère} partie et vol 26-27 (mars/avril) 2^eme partie, paris, le seuil, 1979.
- 16-Sayad (abdelmalek), « Le foyer des sans-familles ».In : Actes de la recherche en sciences sociales, vol 32-33, (avril/ juin), paris, le seuil, 1980.
- 17-Sayad(abdelmalek), « Coûts et profits de l'immigration . Les présupposés politiques d'un débat économique ». In : Actes de la recherche en sciences sociales,(16mars), Paris, le seuil, 1986.
- 18-Sayad(abdelmalek), Histoire et recherche identitaire suivi d'un entretien avec Hassan Arfaoui, Saint Denis, Bouchène, 2002.
- 19-Sayad (abdelmalek), « Emigration et nationalisme, le cas algérien »in : Genèse de l'Etat moderne en Méditerranée, école française de Rome, 1993.
- 20-Sayad(abdelmalek) (en collaboration avec P.Bourdieu), Le déracinement, la crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie. Paris, minuit, 1964.
- 21-Sayad (abdelmalek), « L'immigration algérienne une immigration exemplaire ».In : Les algériens en France, (sous la direction de J.Costa-Lascoux et E.Termime), Paris, Publisud,1985.
- 22-Sayad (abdelmalek) et Gillette(A), l'immigration algérienne en France. Paris, entente, 1976.

En voie de publication :

23-Anthropologie de l'émigration (société de l'émigration et science de l'immigration) : Pour Abdelmalek Sayad 1933-1998. Sous la direction de Chachoua Kamel, Alger, CNRPAH, 2011, sous presse.